

الفصل الأول

كشف أفريقيا

- الكشوف القديمة للقارة.
- الرحالة العرب.
- البرتغاليون في القرن الخامس عشر.
- مرحلة الركود الكشفي فيما بين سنتي ١٥٥-١٧٨٨.
- مرحلة الكشوف العظمى لأفريقيا (١٧٨٨-١٨٨٨).

الفصل الأول

كشف أفريقيا

بالرغم من أن قارة أفريقيا تعد من قارات العالم القديم، فإن الكشوف الجغرافية بها جاءت متأخرة بل وكانت تعرف بالقارة المظلمة Dark Continent وذلك لأن المعرفة الجغرافية لها اقتصررت على المناطق الساحلية بينما بقيت المناطق الداخلية غير معروفة حتي أواخر القرن التاسع عشر بل وأوائل العشرين.

وقد كان تأخر كشف أفريقيا الداخلية راجعاً لعدة عوامل جغرافية حالت دون ذلك وأبرزها العوائق الطبيعية التي تتمثل في الصحراء الكبرى وفي طبيعة أنهار القارة التي لم تسهم بدور كبير في الكشف عن مجاهلها، فنهر النيل مثلاً لم يسمح بالتوغل نحو الجنوب أبعد من أسوان لاعتراض الجنادل لمجره وإعاقتها الملاحه حتي الخرطوم، كما أنه إلي الجنوب من الخرطوم تشكل السدود في نطاق بحر الجبل عائقاً آخر.

كذلك فإن الأنهار الرئيسية الأخرى في القارة لم تخل من عوائق حالت دون استخدامها في الكشوف الجغرافية أبرزها المساقط المائية كما هي الحال قرب مصب نهر الكونغو ووجود الغابات والمستنقعات التي يصعب اختراقها كما في دلتا النيجر ويضاف إلي ذلك الظروف المناخية القاسية في أفريقيا المدارية خاصة على ساحل غانا الذي وصف يوماً ما بأنه «مقبرة الرجل الأبيض».

وبالإضافة إلي هذه العقبات الطبيعية كانت هناك عوامل أخرى أخرجت من نشاط الكشوف في القارة مثل العداء الذي كان يضمه السكان الأصليون للرجل الأبيض بصفة عامة بسبب الحملات التي كان يشنها تجار الرقيق الأوربيون لاصطياد الزنوج في فترة تجارة الرقيق التي ابتليت بها أفريقيا المدارية، كذلك فإن «عصر الكشوف» لم تتوفر به الوسائل الحديثة للنقل أو التبريد أو الأدوية والأغذية المحفوظة التي يعرفها العالم في الوقت الحاضر، وقد جعل ذلك كله جهود المستكشفين والرحالة ضرباً من ضروب المخاطرة آنذاك.

الكشوف القديمة للقارة:

كان وادي النيل مهذاً لأقدم حضارة عرفت أفريقيا، وقد عرف المصريون القدماء معظم حوض النيل وسواحل البحر الأحمر حتي أثيوبيا، ولكن وقفت الصحراء الكبرى حائلاً أمام توغلهم نحو الغرب كما كانت سدود أعالي النيل حائلاً دون التوغل نحو الجنوب، وقد أرسلوا بعثات اتجهت نحو جنوب البحر الأحمر كما نظموا رحلة في عهد الملك نخاو (سنة ٦٠٠ قبل الميلاد) للدوران حول قارة أفريقيا ابتداءً من البحر الأحمر ونجحت في ذلك وعادت بعد ثلاث سنوات عن طريق مضيق جبل طارق.

وإلى الغرب من مصر وعلي امتداد سواحل البحر المتوسط نشط الإغريق في معرفة الساحل خاصة من طرابلس حتي طنجة، وحوالي سنة ٥٠٠ ق.م رحل الملاح القرطاجي هانو Hanno إلى ساحل غرب أفريقيا حتي نهر السنغال.

وقد زار هيرودوت - المؤرخ الإغريقي المشهور - مصر في سنة ٥٥٤ ق.م وأبحر صاعداً في نهر النيل حتي الجندل الأول وسجل كثيراً من الظواهر الجغرافية للمناطق التي زارها.

وفي القرنين الأول والثاني الميلاديين نشط الرومان في كشف بعض مناطق شمال أفريقيا ولكن لم يضيفوا كثيراً من المعارف عن داخل القارة، فقد أرسل الامبراطور نيرون بعثتين لكشف منابع النيل (سنتي ٥٤ و ٦٨ ميلادية) ولكنهما لم يصلتا إلى أبعد من منطقة السدود في الغالب، وقد أوضح بطليموس في خريطته عن العالم (٥١٠ ميلادية) بعض المظاهر عن نهر النيل حيث أظهر النيل الأزرق ينبع من بحيرة في أثيوبيا والمنبع الرئيسي للنيل من جبال القمر في مكان ما من أفريقيا الاستوائية.

الرحالة العرب:

بدأ الفتح العربي لنشر الإسلام في أفريقيا في القرن السابع الميلادي حيث اتجهت جيوش المسلمين نحو شمال القارة بادئة بمصر سنة ٦٤١ ميلادية ثم وصلت إلى شمال غرب القارة وغزت أسبانيا في سنة ٧١١، وبالإضافة إلى ذلك فقد امتد نفوذ العرب ومؤثراتهم الثقافية إلى ساحل شرق أفريقيا لمسافة بعيدة نحو الجنوب حتي زنجبار ومصب نهر الزمبيزي.

وقد أسهم الجغرافيون العرب بجهد كبير في الكشف عن غموض أجزاء عديدة من قارة أفريقيا خاصة في الشمال والشرق، ومن أبرز هؤلاء جميعاً المسعودي (القرن العاشر الميلادي) والادريسي (القرن الثاني عشر) وابن بطوطة (القرن الرابع عشر)، وكانت أبرز جهودهم أنهم كانوا أول من ارتاد بعض المناطق الداخلية في أفريقيا.

ويعد ابن بطوطة واحداً من أعظم الرحالة العرب، فقد أبحر سنة ١٣٣٠ من عدن علي امتداد ساحل شرق أفريقيا وزار بربرة ومقديشيو ومباسا وكلوه (دائرة عرض ٨° جنوباً) حيث قابل هناك عرباً آخرين وصلوا بدورهم إلي صوفالا Sofala (دائرة عرض ٢٠° جنوباً)، إلا أن أهم رحلات ابن بطوطة كانت في غرب أفريقيا حيث بدأ رحلته من مدينة فاس في سنة ١٣٥١ وعبر جبال أطلس واخترق الصحراء الكبرى ونجح في الوصول إلي مملكة مالي الأفريقية ثم سافر بعد ذلك إلي تمبكتو وجاو Gao سنة ١٣٥٣ وقد اعتقد أن نهر النيجر يتصل بأعالي نهر النيل، ومن جاو عاد عبر الصحراء إلي مدينة فاس في مراكش (شكل رقم ١-١).

البرتغاليون في القرن الخامس عشر:

وصل البحارة إلي الساحل الغربي لأفريقيا في الفترة من سنة ١٤٣٠ إلي سنة ١٥٠٠، وأبحروا جنوباً حتي الكاب ومنه إلي المحيط الهندي وكان الدافع الرئيسي وراء ذلك هو إيجاد طريق نحو الشرق الأقصى يحل محل الطريق البري عبر أراضي الامبراطورية العثمانية الإسلامية، وقد وجد البرتغاليون صعوبات في سبيل ذلك أبرزها التيارات البحرية والضباب علي ساحل الصحراء الكبرى الجاف، ولكنهم استطاعوا في سنة ١٤٣٤ أن يصلوا إلي كيب بوجادور Cape Bojador (مقابل جزر كناري) وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة وصلوا إلي كيب فرد، كما تمكنوا تحت قيادة الأمير هنري الملاح أن يصلوا إلي سيراليون في سنة ١٤٦١ ثم إلي جزيرة فرناندو بو سنة ١٤٧٢.

وقد أنشأ البرتغاليون علي الساحل الأفريقي محطات تجارية كانت في الواقع أول نقاط الالتقاء التجاري بين غرب أفريقيا وأوروبا وقامت هذه المحطات بعد ذلك بدور رئيسي في تجميع الرقيق من القارة تمهيداً لتصديره إلي أمريكا.

وقد وصل ديجو كاو Diego Cao إلى مصب نهر الكونغو في سنة ١٤٨٤، وفي سنة ١٤٨٦ قام بارتلميو دياز Barthelomeu Diaz برحلة ناجحة إلى المحيط الهندي، وكان بذلك أول من أوصل البرتغاليين إليه وكانت رحلته فريدة آنذاك، لأنه لم يبحر موازياً للساحل بل اتجه نحو المحيط الأطلسي الجنوبي حتي دائرة عرض ٤٠° جنوباً ثم اتجه شرقاً بمساعدة الرياح الغربية السائدة حتي وصل إلى خليج موسل Mossel في سنة ١٤٨٨، ولكنه اضطر للعودة إلى لشبونة بعد تمرد البحارة.

ثم جاء بعد ذلك فاسكو داجاما Vasco da Gama سنة ١٤٩٧ والذي يعد أول من وصل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، فقد بدأ رحلته متخذاً طريقه نحو الجنوب فالجنوب الشرقي من سيراليون، وأبحر لمدة ثلاثة شهور بعيداً عن اليابس واستدار نحو الشرق عند دائرة عرض ٣٣° جنوباً ووصل إلى ساحل أفريقيا عند خليج سانت هيلانة شمال كيب تاون في سنة ١٤٩٨ ثم اتجه إلى ساحل ناتال ثم إلى خليج دلاجوا وميناء ماليندي في موزمبيق ومنها أبحر نحو الهند (معتمداً علي المعرفة البحرية للعرب) وعبر المحيط الهندي في اتجاه الرياح الجنوبية الغربية ليصل إلى الهند في مايو سنة ١٤٩٨، ثم يعود بعد ذلك من نفس الطريق إلى ماليندي ورأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٩، وبذلك تمكن البرتغاليون من الوصول للهند وأنشأوا محطات تجارية عديدة علي الطريق الملاحي إليها.

مرحلة الركود الكشفي فيما بين سنتي ١٥٠٠ - ١٧٨٨:

تميزت السنوات التي تلت رحلة فاسكو داجاما، وبالتحديد في الفترة بين سنتي ١٥٠٠ إلى ١٧٨٨ - بركود حركة الكشوف الجغرافية في أفريقيا، ومع ذلك فقد بدأت دول أوربية عديدة خاصة بريطانيا وفرنسا وهولنده في منافسة البرتغاليين بإنشاء المحطات التجارية علي الساحل الغربي لأفريقيا، وتركزت هذه المحطات في النطاق الساحلي دون أن تجرؤ علي التوغل (داخل القارة المظلمة)، وكان أبرز نشاط لمحطات ساحل غرب أفريقيا من غانا حتي انجولا تجميع الأفريقيين وشحنهم رقيقاً إلى الأمريكتين، واستمر الوضع هكذا حتي سنة ١٧٨٨ عندما تأسست الجمعية الأفريقية African Association في لندن في نفس السنة والتي كان لها فضل كبير في تنظيم عمليات الكشوف الجغرافية لأفريقيا من حيث تخطيط وتمويل كثير من المستكشفين الانجليز والألمان وغيرهم.

علي أن مرحلة الركود هذه لم تخل من بعض الكشوف التي شهدتها بعض مناطق في القارة كان أبرزها جنوب أفريقيا من ناحية وشرق أفريقيا من ناحية أخرى، وقد ارتبطت الكشوف الجغرافية في جنوب القارة بالتغلغل نحو الداخل حيث عرف البرتغاليون منطقة الكاب مبكراً منذ سنة ١٤٨٦ وأسسوا بعض المواضع علي الساحل كموان لخدمة تجارتهم علي طريق الملاحة نحو الهند^(١)، وكانت هذه المراكز العمرانية المبكرة مؤقتة، ومع تدهور السيطرة البرتغالية بقيت أسماؤها فقط، ولكن نشط البرتغاليون في التوغل نحو الداخل في موزمبيق ومانجولا واتجهوا من مصب نهر الزمبيزي حتي أعاليه، ووصلوا إلى الطرف الجنوبي لبحيرة نياسا في سنة ١٦١٦ ولم يأت عام ١٦٥٢ حتي بدأ إقليم الكاب يشهد نشاطاً هولندياً مشابهاً لنشاط البرتغاليين، وقد أسس الهولنديون موان علي طريق جزر الهند الشرقية أيضاً، وأصبحت قلاعهم نويات للاستيطان الأبيض في هذا الإقليم ثم ما لبثت أن تأسست مستعمرة هولندية لتموين هذه النويات والسفن الهولندية العابرة، وتمت مستعمرة الكاب الصغيرة حتي أصبح عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة في سنة ١٧٧٠، ورغم قلة هذا العدد فإن أثره كان عميقاً في هذه المستعمرة.

وقد كان التقدم الكشفي في جنوب أفريقيا بطيئاً حيث واجهت المستعمرة الهولندية مشكلات متعددة شغلت المستوطنين وشركة الهند الشرقية الهولندية التي كانت تحكمهم، وتركز معظم المستوطنين في السهول الساحلية والأودية، وكان السكان الأصليون لمستعمرة الكاب قليلي العدد يتكونون من البوشمن والهوتنتوت، وما لبث البوشمن أن تراجعوا نحو الصحراء في الداخل بينما عمل الهوتنتوت كرقيق في المستعمرة الهولندية.

ولم يقم الهولنديون بمحاولات للكشف الجغرافي إلا في سنة ١٧٥٢ عندما أفلعت بعثة في الاتجاه الشرقي من مدينة الكاب وكشفت خليج موسل Mossel وعبرت نهر جريت فش Gt Fish إلى منطقة تشغلها قبيلة اكسوزا Xosa إحدى

(١) على سبيل المثال فإن ميناء نورث إليزابيث الحالي يقوم على خليج الجوا Algoa واسم هذا الخليج يوضح الطريق إلى جو بالهند، وكذلك فإن مابوتو الحالية قامت على خليج ديلاجوا De-lagoa من جوا أيضاً، وأقيم هذه الميناء إلى الشمال بعيداً عن الكاب.

قبائل زنوج البانتو القوية الشكيمة والمحبة للحرب، وبدأ بعض التبادل التجاري بينهما ولكن لبثت المنازعات أن نشبت بين الطرفين بعد ذلك.

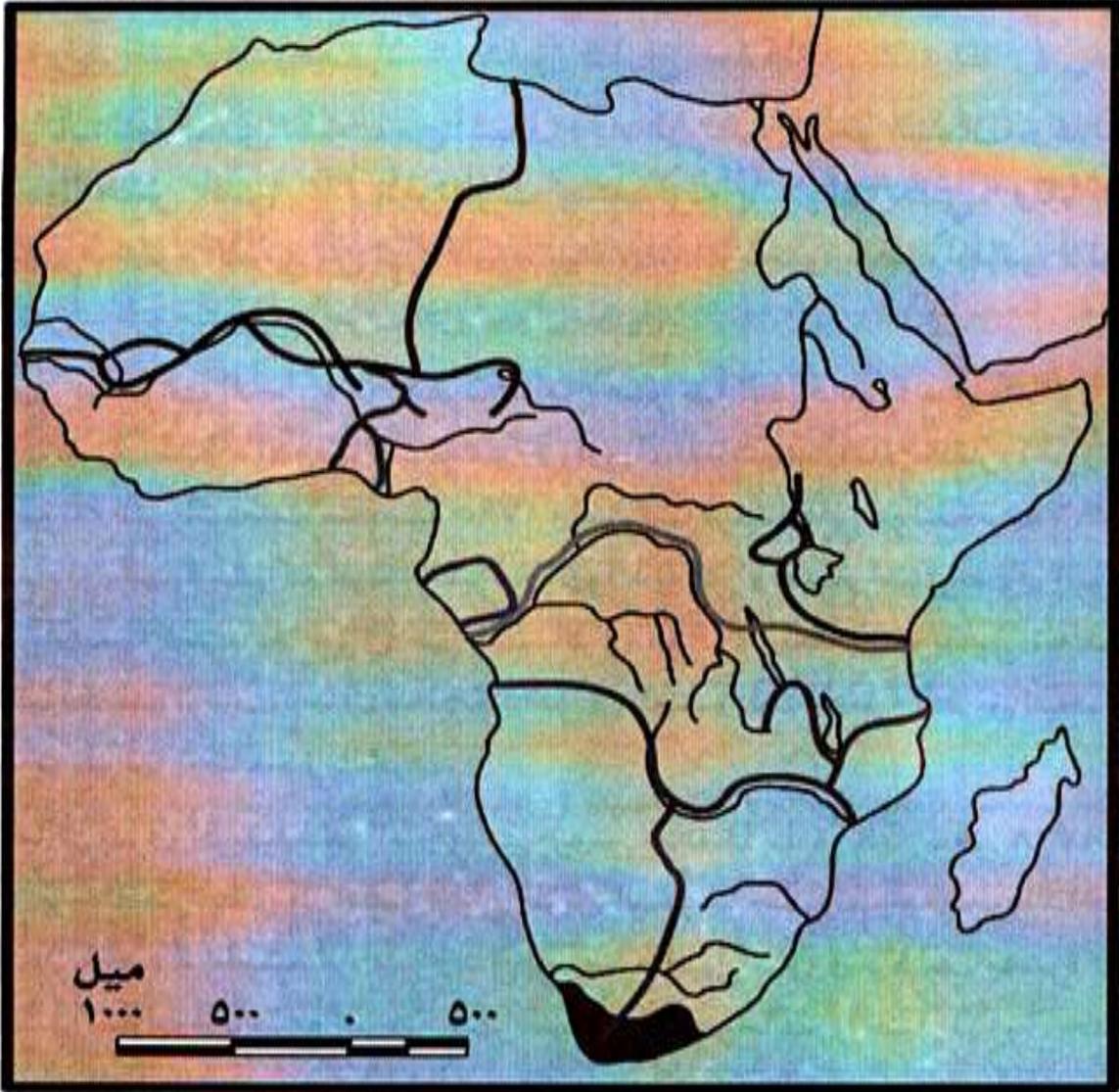
وكان البحث عن الذهب من أسباب اتجاه الهولنديين نحو الشمال، وكذلك العاج والنحاس الذي كان الهولنديون يستعملونه بأسلوب بدائي، وقد عبر الهولنديون الجزء الأدنى من نهر الأورنج سنة ١٧٧٨ ودخلوا منطقة ناماكوا لاندو التي تعرف اليوم بجنوب غرب أفريقيا (أو ناميبيا).

وفي السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر بدأ النفوذ الهولندي يتدهور في جنوب أفريقيا نتيجة الأوضاع السياسية في أوروبا، فقد شهدت تلك القارة الحروب النابوليونية التي اشتعلت منذ سنة ١٧٩٥ واستولت فرنسا على هولندا سنة ١٧٩٦ ووضع ذلك نهاية لشركة الهند الشرقية الهولندية بل وأصبح المستوطنون البوير (بوير بالهندية تعني فلاح) في طي النسيان في الواقع، وبعد ذلك بقليل احتلت بريطانيا مقاطعة الكاب بعد أن بدأت تتدخل في الهند وذلك لحماية الطريق البحري إلى مستعمراتها الجديدة في الشرق.

أما في شرق أفريقيا فقد قام جيمس بروس J. Bruce في الفترة من ١٧٦٨ - ١٧٧٢ برحلة من مصر إلى مصوع عن طريق البحر الأحمر ثم إنجبه نحو الداخل إلى قنار عاصمة الحبشة آنذاك ووصل إلى منابع النيل الأزرق وكشف بحيرة تانا واعتقد في البداية أنها المنبع الوحيد لنهر النيل، ثم أبحر هابطاً في النيل الأزرق حتى اتصاله مع النيل الأبيض عند الخرطوم وعاد إلى مصر عبر الصحراء النوبية.

مرحلة الكشوف العظمي لأفريقيا (١٧٨٨ - ١٨٨٨):

سبق القول بأن مرحلة الكشوف العظمي لأفريقيا بدأت بإنشاء الجمعية الأفريقية في لندن سنة ٨٨٧١ وذلك بهدف تطوير النشاط الكشفي والمعرفة الجغرافية للقارة، وقد واكب ذلك إلغاء تجارة الرقيق في أوائل القرن التاسع عشر وبدأ اهتمام الأوروبيين بداخل القارة الأفريقية وتحرك أطماعهم للسيطرة عليها وتقسيمها، وبدأ المستكشفون الأوروبيون يفتدون إلى القارة بأعداد قليلة زادت في منتصف القرن التاسع عشر، ثم ما لبثت الكشوف أن أصبحت عملية منظمة بعد ذلك. (شكل رقم ١-٢).



- | | |
|------------------------------------|------------------------------|
| ستانلي ١٨٧٧-١٨٧١ | لفنجستون ١٨٤١-١٨٧٣ |
| دي برازا ١٨٧٥-١٨٧٩ | مونجوبارك ١٧٩٥-١٨٠٦ |
| مستعمرة الكاب في أوائل القرن الـ١٩ | بارث ١٨٥٠-١٨٥٦ |
| | كلاپرتون ولاندر ١٨٢٥-١٨٣٠ |
| | برتون وسبيك وجرانت ١٨٥٤-١٨٦٣ |

شكل رقم (١-٢)

أهم المستكشفين في أفريقيا في القرن التاسع عشر

وقد ارتبطت الكشوف الجغرافية في هذه المرحلة بعدة مستكشفين أسهموا في إزالة الغموض عن منابع الأنهار الكبرى في القارة خاصة نهر النيل، ونهر النيجر ونهر الكونغو، وكذا كشف وسط وجنوب القارة، والصحراء الكبرى. ويعد مونجو بارك Mungo Park من أشهر الذين أسهموا في حل مشكلة منابع نهر النيجر سنة ١٧٩٦، وكلا برتون Clapperton ولاندر Lander اللذين كشفا جزئه الأدنى ومصبه سنة ١٨٣٠.

ويعد دافيد ليفنجستون Livingstone أعظم رحالة ومستكشف عرفته أفريقيا في العصر الحديث حيث بدأ نشاطه الكشفي علي امتداد الفترة من ١٨٤١ - ١٨٧٣ بادئاً من جنوب أفريقيا وعبر وسط جنوب القارة حتي شرقها حيث اكتشف كثيراً من البحيرات وأعلى نهر الكونغو وحاول كشف أعالي نهر النيل في هضبة البحيرات لولا أن وافته المنية سنة ١٨٧٣.

أما نهر النيل فقد بدأت محاولات كثيرة للوصول إلى منابعه ابتداء من محاولات جيمس بروس (١٧٦٩ - ١٧٧٢)، وقد أرسل محمد علي بعثات عسكرية لاختراق منطقة السدود في اقليم بحر الجبل حتي خط عرض ٤ شمالاً، وجاء بعد ذلك جون سبيك Speke الذي اكتشف بحيرة فكتوريا في أغسطس ١٨٥٨، وقام ستانلي Stanley بالفصل الأخير في قصة كشف منابع النيل حيث وصل إلى بحيرة فكتوريا، ودار حولها، واكتشف بعد ذلك جبال رونزوري وبحيرة ادوارد سنة ١٨٧٥.

أما الصحراء الكبرى فقد كانت تمثل تحدياً أمام الكشوف الجغرافية ولكن استطاع بعض الرحالة وأبرزهم هورنمان Hornemann الألماني الذي بدأ رحلته من القاهرة سنة ١٧٩٨ إلى سيوة ثم إلى خزان حتي نهر النيجر، ورولفس Rohlf (١٨٦٣ - ١٨٦٧) الذي بدأ رحلته من مراکش ثم عبر الصحراء إلى نهر البنوي حتي التقائه مع النيجر ثم إتجه إلى بلاد اليوروبا ووصل إلى إيدان وفيها إلى لاجوس، وبذلك يعد أول أوربي يعبر الصحراء الكبرى من البحر المتوسط إلى ساحل غانا.

